

تاريخ القبول: 2025/10/15

تاريخ الإرسال: 2025/04/10

تاريخ النشر: 2025/11/30

إيقاع المأساة ومأساة الأرض، قراءة في رواية سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج

The Rhythm of Tragedy and the Tragedy of the Land: A Reading in the Novel Sonata for the Ghosts of Jerusalem by Ouassini El-Araj

بن يحي عمر ، إسحاق أبو العلاء

جامعة تامنغست (الجزائر)، benyahia.omar@univ-tam.dz¹جامعة تامنغست (الجزائر)، Khaledtam2017@gmail.com²

ملخص:

تُروم في هذه المداخلة الموسومة بـ "إيقاع المأساة ومأساة الأرض - قراءة في رواية سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج" تقصي الحسن المأساوي المبتوث في ثنايا الخطاب المُشكّل لهذا النص، والذي يُعد تيمة فنية، هيمنت على وشائج السرد، وساهمت في إنتاج المعنى وتوليديه، ضمن فضاء نصي قدم القضية الفلسطينية في قالب بنائي متفرد شكلا ومضمونا. فقد ركزنا في الدراسة على عنصر أساسي يكمن في دراسة منابع المأساة، وكيف تحولت هذه الأخيرة من إحساس سيكولوجي، إلى معطى سردي يضع القارئ في فضاء نصي، يُقدم القضية الفلسطينية في شكل غير مألوف، متجاوزا الطرح التاريخي والجغرافي للقضية، ضمن شبكة من العلاقات المعقدة، أسهمت في بناء المعنى وروح المعنى.

وتهدف هذه الدراسة إلى كشف جماليات اللغة السردية ضمن مستوى عميق في معالجة القضايا الإنسانية والالتزان بها عند الروائي واسيني الأعرج، فالسرد

الروائي وسيلة مهمة للدفاع عن الإنسان وقضاياها العادلة، فمن خلال تشكل اللغة والأساليب تتشكل المعاني وترفع المباني التي أراد الكاتب رفع قوامها، وبهذا تتحقق شعرية النص الأدبي فيخرج النص من فضاءه اللغوي إلى فضاءات عدة يمكن من خلالها فهم التجربة الروائية وسبر أغوارها الدفينة، فقد تجاوز الكاتب باستعمال السرد حدود الجغرافيا والواقع في تصوير المأساة الفلسطينية فجعلها قضية إنسانية ضمن معادلة وجودية تكمن في صراع الخير والشر والحق والباطل، وهذا جديد واسيني الأعرج في تناوله للقضية الفلسطينية، لذا كان نصه هذا مقتردا من حيث البناء والعنى والدلالة.

الكلمات المفتاحية: إيقاع، المأساة، القضية الفلسطينية، الهزيمة التاريخية، واسيني الأعرج.

Abstract:

In this intervention, entitled 'The Rhythm of Tragedy and the Tragedy of the Land - A Reading in Sonata for the Ghosts of Jerusalem by Ossini El-Araj', we aim to explore the tragic beauty embedded in the formative discourse of this text, which is an artistic theme that dominated the bonds of the narrative and contributed to the production and generation of meaning, within a textual space that presented the Palestinian cause in a unique structural form in form and content. The study focused on a key element that lies in studying the origins of the tragedy, and how the latter transformed from a psychological feeling to a narrative meaning that places the reader in a textual space that presents the Palestinian issue in an unfamiliar form, going beyond the historical and geographical presentation of the issue, within a network of complex relationships that contributed to the construction of meaning and the spirit of meaning.

This study aims to uncover the aesthetics of the narrative language at a deep level in addressing humanitarian issues and balancing them with the novelist Wassini Al-Araj, as the narrative is an important means of defending the human being and his just causes, through the formation of language and methods, meanings are formed and the buildings that the writer wanted to raise are raised, and thus the poetry of the literary text is achieved, and the text emerges from its linguistic space Through the use of narrative, the author transcended the boundaries of geography and reality in depicting the Palestinian tragedy, making it a humanitarian issue within an existential equation that lies in the struggle of good and evil, right and wrong, and this is new for Wassini Al-Araj in his approach to the Palestinian issue, so his text was unique in terms of structure, meaning and connotation.

Keywords: rhythm, tragedy, the Palestinian cause, historical defeat, Wassini Laredj.

مقدمة:

يُحلل خطاب الرواية واقع القضية الفلسطينية ضمن منظور الكاتب، فقد أعطى مفهومًا جديدًا للمأساة العربية -عموماً- والفلسطينية بشكل خاص -فواسيني الأعرج من خلال روايته سوناتا لأشباح القدس يقدم القضية الفلسطينية ضمن شبكة علاقات معقدة ومركبة من عدة معطيات تاريخية واجتماعية ونفسية وفكرية، تتحاور جميعها مشكلة إيديولوجيا النص وخطاب الرواية، ضمن منظور الكاتب.

فالقضية الفلسطينية واحدة من أهم القضايا التي نالت حظا كبيرا من لدن الكتاب العرب، لما لها من بعد إنساني، وتاريخي أيضا، فكاتبنا استطاع من خلال هذا النص الغوص في جذور القضية، من خلال سبر الأغوار النفسية للنفس الفلسطينية المغتربة. ويشغل خطاب الذاكرة مساحة واسعة في هذه الرواية، ويضطلع

بأهمية قصوى نظرا لتعالقه بالذات الإنسانية، فضلا عن كونه همزة وصل بين الماضي والحاضر، من خلال استحضار الذكريات وتوليد الصور، هذا ما جعل المأساة تتشكل، وتسيطر على أغلب البنى السردية المكونة لروايتنا المدروسة، وسنعالج هذه القضية انطلاقا من إشكالية محورية تبحث في كيفية تشكل الحس المأساوي، وذلك عبر محورين، الأول متعلق بالذاكرة، والآخر متعلق بالأرض.

1. إيقاع المأساة/ ألم الذاكرة:

يقدم واسيني الأعرج مفهوما عميقا للمأساة بشكل متفرد في البناء الفني لروايته سوناتا لأشباح القدس، إذ يحكم الحس المأساوي وشائج السرد وجميع مكوناته، فيقدم من خلالها القضية الفلسطينية محملة ومثقلة بالألم والحزن. معبرة عن واقع الإنسان الفلسطيني المغتصبة أرضه وكيانه، ولكن ضمن معطى سردي مختلف ومتفرد في البناء والأسلوب، إذ نرى أن واسيني الأعرج من خلال شخصية «مي» يطرق بابا من أبواب المعاناة، وهو معاناة الفلسطيني المغترب أرضه، لتأخذ المأساة هنا خصوصية فنية نابغة أساسا من تجربته «مي» المرتحلة عن وطنها نحو وطن آخر. يتجلى إيقاع المأساة في هذه الرواية عبر مستويين، المستوى الأول متمثل في الزمن، حيث جعل الكاتب من الزمن الماضي جدارا إسفنجيا تصطدم فيه المشاعر والأحاسيس والآمال، لترتد بعنف وترتطم بصلاية الحاضر، والواقع العربي الأليم، فقد عمد واسيني الأعرج لاستحضار التاريخ الأندلسي وبالضبط في أواخر عهده - زمن نكبة الأندلس - ولهذا الاختيار دلالة قوية، وبالرغم من زخم التاريخ الأندلسي المثقل بالأمجاد والبطولات والانتصارات إلا أن الكاتب لم يعبأ به، وراح متسللا إلى أواخر هذا الزمن، زمن النكبة والانكسار، ليربط خيوط الزمن ببعضها البعض. فنكسة العرب والمسلمين تساوي نكسة الفلسطينيين، فكلا المناسبتين تشتركان في ضياع الإرث التليد، والجغرافيا المجيدة المقدسة، قداسة الأرض والتاريخ، لذا وجد واسيني الأعرج في هذا الزمن بالذات ملاذا آمنا، وتربة خصبه ينفث فيها جراحات النفس وألم الذات، بخيائتها وانكساراتها وأوجاعها.

إن استحضار الكاتب للزمن الأندلسي -زمن النكبة- هو محاولة جريئة وصريحة لمحاورة الواقع العربي المنهزم والمشتت بدء من سقوط الأندلس، إلى يومنا هذا، فواسيني الأعرج لا يرى في انتكاسة العرب بفلسطين بداية للخروج من التاريخ الحضاري، بل هو استمرار ونتيجة لواقعة تاريخية أبعد وأعمق من سقوط فلسطين، تتمثل هذه الواقعة في نكبة الأندلس وسقوطها، لذا نجده يربط مرار بين الواقعتين في ثنايا الخطاب المكون للنص الروائي في الكثير من المناسبات، يقول " هو يتذكر جيدا أنه فاجأها ذات فجر، وهي تندن أغنية أندلسية شجية، قبل أن يذهب إلى عمله، في أوبرا نيويورك أغنية أجدادها الذين سرقت أسواقهم ومدنهم الجميلة" يطرح واسيني إشكالية الذاكرة الفلسطينية ضمن رؤية إبداعية ومبنى ثقافي خاص، فالقضية الفلسطينية متقوية أمام انهيار تاريخي وحضاري للأندلس، وجراح التاريخ ممتدة في الجسد العربي منذ محنة الأندلس، فإن كانت «مي» قد تركت الأرض جغرافيا إلا أن انتماءها الذاتي والروحي ما زال معلقا بقناديل فلسطين. فتتحول المحنة هاهنا من محنة الأرض، إلى محنة الذات المغتربة تاريخيا وجغرافيا.

إن التجربة الأساسية للكاتب تمحورت حول امتداد الألم والنتية والضياح، من بلاد الوندال إلى مبعث الأنبياء، وبذلك يساوي بين قوة الصدمة وألم الواقعة في سقوط الأندلس في يد الإسبان، وسقوط فلسطين في يد الصهاينة، يقول " جدي مات وشبع موتاً، وأن له أن يرتاح من مذابح الأندلس، وأن يريحني معه، كم أشتهي أن أزوره برفقتك، كم يبدو قريباً مني أكثر من أي زمن مضى، أشعر أنه يناديني نحو أرضه المفقودة ... لا صوت لي، سأسوه أغنية عزيزة على قلبي، وهي ما تبقى من ذاكرة سرقت منيدي"¹. يطرح الكاتب هنا سؤال الموت ذو الطابع التاريخي الرمزي، وهو بنية زمنية خطية، انطلقت من زمن محنة الأندلس، وصولاً للنكبة الفلسطينية، فالموت بهذا المعطي ليس موتاً بيولوجياً، بل هو خروج من التاريخ، وضياح للجغرافيا والكيان، سؤال الموت عند واسيني الأعرج سؤال رهيب ومقلق يتجلى فيه سكون الحركة في اللازمن واللامكان مشكلاً الموت التاريخي من منظور متخيل، لأن بنية النص لم تتفصل عن البنية التاريخية والثقافية للعرب " وإذا كان بإمكان الخيال

أن يبني ما شاء من العوالم، فإن الخيال الأدبي عند الروائي قصد العالم الذي حرم من العيش فيه، والذي يبدأ من الاستبداد وينتهي إلى الحرية، أو ينطلق من الاستبداد من حيث هو وجود لا عقلاني، ويصل إلى العقل بعد أن تخفف من تشوّهه، وأعاد تأويل العالم بشكل سوي² لذا فالكتابة عند واسيني الأعرج "لا تستفيد من تاريخ وابداعات الكاتب - فحسب - بل وصلت خبرته إلى الدرجة التي تجعله قادراً على امتصاص ثيمات القضية الفلسطينية ورواها، ليعيد صياغتها داخل منطق رؤيته، مما يمثل تناسلاً وتفاعلاً حياً مع تاريخ الإنسان الفلسطيني، وبالتالي قدرته على إيقاظ شهوة القضية داخل ظروف سياسية شديدة التدني، أي أنه يخلق دوامة دائمة للحركة تجرف الأماكن، والزمان والطفولة واللحظة الحاضرة، بحسيتها وثقل وطأتها، ليخلق من هذا كله إيمانه باستمرار الوجود، وحركيته المتصلة بين الحياة والموت"³

إن منطق الرؤية الواسينية في رواية سوناتا لأشباح القدس، يتجلى في البحث أساساً في مفهوم الهزيمة والانهزامية، وذلك من خلال مجموعة من العلاقات المتشابهة، أبرزها علاقة الإنسان بالإنسان، علاقة الإنسان بالتاريخ، علاقة الإنسان بالجغرافيا، وكل هذه المكونات تندمج وتتصهر فيما بعد لتشكل نواة ينطلق منها النص ويعود إليها، وبالتالي يجد الكاتب مساحة تعبيرية ينفث فيها وحيه، ويقوم فلسفته في النظر للأشياء والعلاقات والكشف عنها، ولعل أهم علاقة يقيمها الكاتب في هذا النص، هي علاقة الإنسان وبالضبط العربي بالتاريخ والجغرافيا، ومن حيث التاريخ فواسيني مشدود بأمراض شديدة القتل نحو زمن المحنة الأندلسية، زمن السقوط، سقوط الإنسان العربي من علياء الحضارة، تقول «مي» " صدقني وحياتك... أشعر أنني معنية بها بشكل غريب، إنها أغنية أحد أجدادي الذين لم يجد الوقت الكافي لتوديع مدينته، فحمل على ظهره ثقل أندلسه قبل أن يغمض عينيه، وينطفئ في البرية، ثم يندفن في عمق هذا البحر"¹. يُعجز الكاتب المأساة التاريخية عبر صدع الذاكرة المصقولة والمشدودة نحو الماضي الأندلسي، فبالرغم من معاناة «مي» في واقعها المعاش وحاضرها المتعفن بجرائم المستعمر وسطوته، إلا أن ألمها بذكرى الأندلس كان أشد وقعاً مما تعايشه ونقاسيه، وبذلك يبني واسيني بداية المأساة

من لحظة السقوط، أي الهزيمة التاريخية من وجهة نظر الماضي والحاضر، وبقيم خطأ مستقيماً يبدأ من سقوط الأندلس وينتهي عند نكبة فلسطين، وهو بذلك يعيد قراءة تاريخ فلسطين ونكستها من منظور تاريخي عميق، يمكن أن نصلح عليه بالموريسكية الفلسطينية، وهو ما يُعد موقفاً فكرياً، ورؤية شمولية، تجسد علاقة التاريخ بالرواية، تلك العلاقة التي تلامس ما هو جوهري وفاعل في مساره، وتكون مفتوحة على الزمناً وترباطها أيضاً بمحاولة إغناء الوقائع التاريخية في النص، "فالرواية تعيد قراءة التاريخ من خلال رؤية، وهي في التحديد الأخير موقف فكري يسهم في فهم محطاته وانزلاقاته وانكساراته وخيباته"²

وفي مقطوعة سردية أخرى يسوق واسيني الأعرج مأساة الذكرة الفلسطينية المشدودة بأمراس الخيبة والأسى للزمن الموريسكي، حين يقول " رأى جده الأندلسي وهو يخوض آخر معاركه الخاسرة، في عالم لم يكن عادلاً، يمتطي حصاناً ويركض بسرعة قبل أن يتمزق إلى آلاف القطع في المعبر الأول الذي يقوده إلى مداخل غرناطة"³ فالمعارك الخاسرة هي التي يخرج فيها المنهزم من سماء الحضارة، إلى الأرض الدنيا حيث الهوان والته، فمداخل غرناطة في هذا السياق، هي مخارج التاريخ ونهاية السيادة، فمعنى المأساة بهذا المعطى تتضح جلياً بخروج العربي من كنف التاريخ المجيد، مجد الحضارة الإسلامية. فما الزمن الأندلسي إلا حلقة منها، لتغدو المأساة هنا أكبر من أن تكون حالة نفسية، أو لحظة راهنة، بل تظهر في أقصى تجلياتها وهو الهوان والضعف في زمن لا يقبل سوى الأقوياء.

إن انخراط واسيني في أزمة الأندلس وما انجر عنها، أتاح له فهم حاضره بنكباته وخيباته، فهنا تظهر علاقته بالتاريخ، تلك العلاقة التي تنتظر للواقع من نافذة الماضي، يقول "جذك من أمك جاء من إسبانيا، رجل قطع البحار هرباً من محاكم التفتيش المقدس في القرن السابع عشر. لم يمهله حتى أن يأخذ معه كتبه وأوراقه وترابه وحوائقه. إكتفى بفرع الياسمين فقط"¹. تحدث القطيعة هنا بين العربي و ماضيه التليد وإرثه المجيد، منذرة بدخوله مرحلة جديدة تشكلت من رماد الانهزامية والهوان والاستسلام، فالجد معادل موضوعي للماضي والتاريخ، بينما فرع الياسمين

معادل موضوعي للهزيمة والاستسلام، فقد وجد الكاتب من خلال المقارنة الرمزية المبطنة بين التاريخ والواقع في ثنايا الخطاب نافذة ينقضي من خلالها علل الحاضر وآهات المجتمع، فعلاقة الراوي بالتاريخ إذن ليست شيئاً خاصاً ومعزولاً، بل عنصراً مهماً من العناصر التي تؤلف علاقته بالوقائع والذاكرة التاريخية، وإذ نفحص هذه الوقائع التي تقع في الرواية نتيجة علاقة الراوي بها، نرى أنه لا توجد مشكلة جوهرية واحدة بالنسبة للتاريخ، فعلاقة الراوي لا يمكن أن تساوي ميكانيكياً علاقته بالمجتمع المعاصر بل العكس، يوجد تفاعل معقد جداً بين علاقته بالحاضر، وعلاقته بالأحداث التاريخية وتفاعله معها²

تتعمق الجراح وتتجذر المأساة، وتواصل الذاكرة الموريسكية حضورها ونزيفها في الرواية، معمقة الإحساس المدمر لماضي الهزيمة وامتداداته، ولإخفاق الحضاري العربي، وهذه المرة عبر إيقاع موسيقي للسوناتا على أرض نيويورك، حين يقول "خريف نيويورك لا يمر هكذا يُذكر دائماً بألوان «مي» وبالرغبة المجنونة لإنجاز سوناتا لأمه ولأشباحتها، قبل التفكير في ملحمة موسيقية لأجداده الأندلسيين الذين هاموا ذات شتاء على وجوههم"³ وبالنظر لرمزية الخريف ودلالاتها في السياق، نجد أن الخريف رمز للسقوط، وفيه تصفر أوراق الأشجار، وتسقط من علباء الغصون على الأرض، فتتعرى الأشجار وتكشف عورتها، أما عن الموسيقى، فالسوناتا هي توقيعة معزوفة تغني هنا لحن الخريف العاصف، الذي لا يبقى ولا يذر، فالدلالة الرمزية لهذه المكونات اللغوية توحي أن «مي» لازلت تحمل جراح أجدادها الموريسكيين، وهي في أرض منفاها الاغترابي، لأن ما تعلق بالذاكرة لا تمحوه السنون مهما تعاقبت واختلقت.

إن واسيني الأعرج يؤسس منظوره من لحظة الهزيمة التاريخية التي مني بها العرب في الأندلس، والتي مثلت إخفاقاً حضارياً أصاب العرب في مقتل، وأندرت بخروجهم المدوي من رحم التاريخ والحضارة، ويمتد هذا الإخفاق والسقوط عند واسيني للحظة الاستلاء على فلسطين، واغتصابها جغرافياً، والسؤال الذي نطرحه لماذا

³ المصدر، ص 86.

ربط واسيني بين مأساة الموريكيين، والمأساة الفلسطينية؟ وكيف أنتج لنا معنى المأساة من خلال هذا الاختيار.

يجيبنا الروائي حسن أوريد في روايته الموريكي قائلا "...والموريكيون وهم ضحايا ما يمكن أن نعبر عنه بالتطهير العرقي، وكانوا إرهابا لما سوف تعيشه شعوب مسلمة أخرى في سياق جزر الحضارة الإسلامية، فقد كانوا فلسطيني ذلك العصر، مثلما يجوز أن نقول أن المأساة الفلسطينية هي نسخة من مأساة الموريكيين"¹ وهذا ما يعلل جنوح واسيني الأعرج لذاكرة مشدودة نحو زمن الهزيمة الأندلسية، فلولا التهاوي الحضاري العربي للأندلس لما سقطت فلسطين في يد الصهاينة المغتصبين، وما عاشه الموريكيون ستعيشه شعوب عربية مسلمة، وحاضرنا أكبر شاهد على هذا الاستشراق الروائي، الذي أُنذر به الكاتب من خلال هذا النص، ف شخصية «مي» بـماضها الأندلسي المنكسر، وحاضرها الفلسطيني المنهزم، تجسد بهذا المعطى معاناة العربي المسلوب في كيانه ووجوده وأرضه، فقد كانت مدخلا تاريخيا للأجيال العربية، ومآل الإنسان والحضارة، وبالتالي تتشكل روح المأساة من رحم الهزيمة وتمتد مشكلة شبكة معقدة من المعطيات (الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية) التي أسهمت جميعها في صناعة الإخفاق الحضاري، الذي سهل على الآخر جزر الأمة الإسلامية وتعميق جراحها وآهاتها.

يقول الكاتب على لسان «مي» " كان وعد بلفور المتعاطف علنا مع اليهود أن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وستبذل كل جهودها لتحقيق هذا الغرض. وسيتم ذلك دون المساس بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين. إتضح منذ ذلك الوقت أن المسألة كانت جادة، ولم تكن لعبة أو مجرد طمع، وصار واضحا أن ظروف العرب من مسلمين ومسيحيين ستكون قاسية جدا في السنوات والقرون اللاحقة "¹ وبالتالي يقر واسيني الأعرج بحقيقة تاريخية تنفجر منها المأساة وتتشرط إلى شظايا، من مأساة فلسطينية، إلى مأساة عربية، تصيب جميع الشعوب العربية، وتبعثها نحو الفناء والتهيه في مدار الحضارة البائدة، وواقعا اليوم أكبر شاهد على هذا

المشهود، تساقطت فيه بلدان العرب واحدة تلو الأخرى في يد الطغيان وجبايرة لا تعرف للإنسانية ذوقا ولا معنى.

2. مأساة الأرض/ بتر الذاكرة:

لم يكنف الكاتب بصناعة المأساة من رحم التاريخ والزمن بل استطاع عبر حلقات السرد أنيخلق المأساة أيضا من حلقة أساسية تتمثل في الأرض باعتبارها فضاء مكانيا تارة، ومكونا أساسيا من مكونات الهوية العربية، فجغرافيا الأرض عند واسيني الأعرج تنطلق من الحدود القومية وتتجاوزها في لحظة ما معلنة حدود جديدة في اللامكان واللازمان، وبذلك تغدو الحدود وهما زائفا ومعطى لا موجود أمام روح الإنسانية الضامنة للحياة، بعيدا عما يعكر صفوها من ألم وانكسار. ويكمن مفهوم الإنسانية عنده في " أن نعطي الأولوية للحياة كما تفعل «مي» دائما، في أقصى درجات الحزن والخيبة كانت تنتظر للأقدار القاسية نظرة محبة وتفاؤل وتضع النور أمامها بدل الظلمة، الحياة أولا وأخيرا"².

تتجلى مأساة الأرض في رواية سوناتا لأشباح القدس، عبر مأساة الفقدان، فهو المنبت السردى لهذه الرواية، ومبعث قوامها، والمبنى الأساسي لحبكته، ومنها يعالج الكاتب قضايا معقدة ومتشابكة جدا، خلقت حيزا فكريا، يناقش القضية الفلسطينية ضمن إطار فكري متفرد، ينطلق فيه الكاتب من سؤال محوري مهم، هو كيف؟ ولماذا خرج العرب من دائرة الحضارة؟ وما مصير العالم العربي بعد هذا الإخفاق والسقوط المدوي؟

تقول «مي» في الرواية " هل جريت أن تسرق منك مدينتك الوحيدة بالضبط في اللحظة التي بدأت تعرفها فيها، وتستشف كل صباح عطر تربتها، أنا جريت ذلك وأشعر بغنف الغياب، وأطلب من الله صباحا ومساء أن يحفظك من ذلك الإحساس المدمر، وأن يمنحك الصبر الكافي لكي تواجه خسارات المدن الفادحة، ولا تضطر لمواجهة ما تحس به الآن، لا أحد في الدنيا في منأى عن فقدان منبته وتربته، ويبدو أن قدرنا الكبير هو أن نتدرب باستمرار على فقدان ساعات في اليوم على الأقل، مثلما نفعل مع الرياضة لكي لا نموت قهرا"¹. تتفجر المأساة في الرواية معلنة دخول

الشخصية المحورية في مسالك الجحيم المظلمة، فكان فقدان الأرض هو اللحظة الأساسية التي تولد منها النص والمأساة معاً، من بداية الرواية إلى ختامها، فالرحلة تظهر في بادئ الأمر رحلة طوعية بحثاً عن العلاج من داء السرطان لـ «مي» في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن دلالة الخطاب المبطنة في ثنايا النص تُبين أن رحلة «مي» هي رحلة قسرية من أرضها إلى أرض أخرى، وبذلك يقدم واسيني الأعرج مفهوماً جديداً للاغتراب بعيداً عن المنفى المكاني، مجسداً لصورة ناطقة وحية لاغتراب جديد، يبحث فيه المغترب عن ذاته وهويته في فضاء قومي يفترض أنه مألوف، وبذلك يُحمل الشخصية المحورية في الرواية صوراً حوارية تناقش وتحلل الواقع الفلسطيني ضمن مستوي ذاتي وقومي وإنساني، ليخلص في الأخير لوجهة نظره من هذه القضية، مؤسسة على معطيات وحقائق تظهر في سياقات النص.

إن السؤال المهم الذي انطلق منه واسيني من خلال رحلة «مي» في هذه النص، ينطلق من الأرض في حد ذاتها، وعلاقتها مع أهلها، تلك العلاقة المألوفة التي تجمع بين الأم وابنها، وبالتالي يبحث الكاتب عن أسباب البتر في هذه العلاقة، وما انجر عنها من نتائج كان سبباً في تسهيل محاولة جزر الأمة العربية، ومحوها من الوجود، يقول الكاتب متحدثاً على لسان «مي»: " لم أكن أدري أبداً أنني سأحمل جرحاً قاسياً طوال عمري، لن يمنحني أية لحظة للعيش، وسيظل ينغص علياً حتى السعادة الطارئة، لم يكن من حقي أن أخرج عن المألوف وأروح قليلاً، ما دامت روح أُمِّي في ضياع، تبحث باستماتة عن جلادها، لا لتحاسبه فالأمر لم يعد مهماً، ولكن لتسأله فقط لماذا قتلها، وماذا ربح من حرمانها من حق الأمومة، بعد سنوات الموت والجفاف² فسنوات الموت والجفاف تبدأ ضمنياً من سقوط الأندلس في يد الإسبان، وبذلك يعلن التيه والضياع حضورهما في العالم العربي، فالفقدان بهذا المعطى لم يكن بسبب القوة المضادة، بل بسبب ضعف الفاعل الذي كان لقمة سائغة في فم القوة الغاشمة، وهو ما يبينه واسيني من خلال العلاقة الرمزية بين «مي» وأُمِّها، أي بين الأرض وأهلها، ليبين الاغتراب بهذا الطرح نتيجة حتمية، وتفقد الأرض كينونتها

وحضورها، فتتبدل الأرض غير الأرض، و الإنسان غير الإنسان، فما السبيل للعودة والإياب؟

يقيم الكاتب محكمة يتباحث فيها سبل العودة والإياب، من خلال تتبع الزمن التاريخي والذي ينبع من تفاصيل الواقع والذاكرة من خلال استدعائه، يراهن الكاتب على محاكمة الذات والجماعة والمؤسسة والسلطة، وسط لجة الأحداث التي يتخذها مطية أو قناعاً، لنحت متخيله النصي، فهو إذن زمن وثائقي بامتياز في مجمل وقائع المرصودة، لكنه قابل للتجاوز من خلال استدراجه كخلفية لهذا النص أو ذاك، من أجل مبايعته كزمن مثالي، أو من أجل نقده وإبراز مكامن الخلل فيه ¹ فقد عمد الكاتب لتكوين صورة الذاكرة بموازاة مع الأرض، لجعلها المركز والقضية الكبرى "شيء ظل يملأ ذاكرتي وحضوري، وأنا لا أعرف بالضبط مصدره الحقيقي، شيء اسمه عدوى الأرض" ² ومن ثمة يأخذ صورة الأرض في شكلها المتخيل المعقود في الذاكرة، وهي جغرافيا الأندلس "لم أكن أريد أي شيء سوى أن أذهب نحو الأرض التي شقت جزء من ذاكرتي، ولم أعرف السبب بالضبط، تساءلت في أعماقي: أبعد كل هذا الزمن أتذكرهم؟ ما الذي يقودني نحوهم ونحو الأندلس؟ جنتي الملتبسة، لم تكن لدي أي رغبة للبحث في الأسباب، فقد كنت مشبعة بشيء غامض لا سلطان لدي عليه، الأندلس جنتي الملتبسة" ³ ثم يطبقها على صورة الأرض في حاضره وواقعه (فلسطين)، ليحمل المعنى وروح المعنى نحو كمال الصورة، حين يقول "يكفي أن ننظر من حولنا لنذكر أن هناك عودة محمومة إلى التقاليد الميته، ومحاكم التفتيش المقدس على الأبواب، تغيرت الأسماء فقط والآلات، لكن العقل الطاعي هو نفسه، وكأنه لم يتحرك قيد أنملة" ⁴

يسعى الكاتب للعودة والإياب للحاضر والمستقبل عن طريق بتر الذاكرة والغائها، فمن خلال المضممرات السردية الممتدة في النص، نرى أن واسيني الأعرج لا يتنفس مرتاحاً إلا في أسواق النسيان، وبذلك يتسنى له أن يتجاوز الجراح المحفورة في ذاكرته، والمنقوشة على نقاسيم وجهه، ومن ثمة يتخطى العثرة والعتمة، ويقيم لنفسه عالماً جديداً حالماً وحاملاً لكل ما يرغب فيه ويشتهي، يقول "يومها تأكدت أن ما

حدث كان خطيرا ومدمرا، لا للحاضر وحده، ولكن لمستقبل أجيال بكاملها، وأنه كان علي أن أطوي كل الصفحات القديمة، لأنتبه إلى الحقيقة المرة للأرض التي ولدت فيها وكبرت على تربتها¹ ويضيف قائلا " لا تخافي لن تُشفى أبدا من مرض الأرض الآن، هذه أرضك فيها تعيشين، وعليها تموتين، لا تلتفتي وراءك كثيرا وإلا ستظلين معلقة في الهواء مثل أجراس الكنيسة القديمة، كلما سحبوا حبلا فيها أنت بقوة لدرجة إيقاظ الموتى والأحياء معا"².

إن بتر الذاكرة الأندلسية ومحاولة إلغائها ومحوها، يجسد جدلية الاتصال والانفصال بين الماضي والحاضر، فإن تم الأول، تعمقت المأساة حد التعفن، وإن تم الثاني، فبشرى بميلاد واقع جميل، ستسعى الأجيال اللاحقة لصناعته والعيش في كنفه، فما التاريخ إلا أيام ودول، ستشرق شمس العرب حتما من مشرق الأرض، وتستعود المأساة أسيرة مع الغروب.

خاتمة:

يلتقط النص صورة الوضع المأساوي العربي، من السقوط الأندلسي، إلى ضياع الأرض الفلسطينية الطاهرة، ويعزف واسيني الأعرج على أوتار الألم والحزن سيمفونية سردية استنادا على سوناتا موقعة بزمان موريسكي مزدوج، يختزل أزمة الحضارة العربية الأخيرة في أتعس أيامها، وأعم أزماتها، فقد انطلق واسيني الأعرج من مركزية الأرض، وراح يتجرع من كدماتها ومنخفضاتها واقع البئس، وهمجية القوى الغاشمة، التي استحلت رائحة الدماء وصور الجثث المتراكمة قرب مخارج التاريخ ومداخل النية.

قدم واسيني الأعرج المأساة عبر مستويين، الأول متعلق بالتاريخ والذاكرة، والآخر متعلق بالوعي المأساوي الناجم عن الفقد والضياع، وهو بذلك يجعل من المأساة استراتيجية لتوليد النصوص، وإنتاج المعاني والصور، ليصبح النص معزوفة موسيقية تلخص رحلة العذاب في زمن الانكسار، لحظة التهاوي والسقوط من علياء الحضارة، إلى منخفضات التاريخ ومنعرجاته، فهذا النص مثقل بأنين الماضي، وزفراته المتصاعدة نحو حاضر مدمر، ومستقبل سيئ، يجعل المسافة بين الحلم والواقع

تتلاشى وتذوب بين الاغتراب والتحقق، في عالم انحطت انسانيته إلى ما دون الصفر، فتبدلت الأرض فيه غير الأرض، والسماء كذلك، فكان هذا النص نصاً استشرافياً بامتياز قرأ فيها الكاتب ماضٍ أليم ومستقبل سائر في مسالك الجحيم.

الهوامش:

- ¹ واسيني الأعرج، سوناتا لأشباح القدس، لبنان: دار الآداب، ط1، 2009، ص25.
- ¹ المصدر، ص 26.
- ² فيصل دراج، وضع الرواية العربية في حقل ثقافي غير روائي، فصول/ ع3، 1977، ص29.
1. عبد الوهاب بوشليحة شرفات النص، قراءات في الرواية المغاربية، الجزائر: إبن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2022، ص 47 .
2. المصدر، ص30.
3. بوشليحة عبد الوهاب، النص وآفاق التأويل، ص 53 .
4. المصدر، ص55.
5. المصدر، ص114.
6. جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد كاظم، لبنان: دار الطليعة، 1978، ص416.
7. حسن أوريد، الموريسكي، تر: عبد الكريم الجويطي، المغرب: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط1، 2011، ص 9 .
8. المصدر، ص303.
9. المصدر، ص80.
10. المصدر، ص30.
11. المصدر، ص304.
12. بشير قمري، فلسفة الأدب العربي، مداخل وقضايا نظرية، مدارات فلسفية ع11، 2004، ص95_96.
13. المصدر، ص411.
14. المصدر، ص418_419.

15. المصدر، ص 428

16. المصدر، ص 303.

17. المصدر، ص 304